وقف مركز مكة العالمي للهداية القرآنية
جمعية القلم للدراسات والأبحاث
مؤتمر
هدايات القرآن في بناء الإنسان

عنوان البحث:

حضارات رائدة وحضارات بائدة في ضوء القرآن

اسم الباحث/ـة

أ.د/ أحمد محمد الشرقاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن نبينا ومعلمنا ورائد حضارتنا محمد، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه مصابيح الهدى ومنارات العلم وحملة مشاعل النور، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم النشور. وبعد:

فقد أرسلَ اللهُ الرُّسُلَ، وأنزلَ معهم الكُتُبَ، لِتُضِيءَ للإنسانيةِ طريقَهَا، وتُوقِظَها من غَفْوَتِهَا، وتُخْرِجَها من وَهْدَةِ الحَيرةِ، وتِيهِ الغَفْلَةِ، وبَيدَاءِ الظُّلم، ومهامِه الجهلِ، إلى صِرَاطِ اللهِ المستقِيمِ، ونورِهِ المبِينِ، وذِكْرِهِ الحَكِيمِ، ومِنْهاجِهِ القويمِ، وشريعتِه الغرّاء، ومنارتِه الزّهراء، ليعودَ الناسُ إلى ربِّهم، ويثُوبوا إلى رُشدِهَم، ويهتدوا إلى غَايَةِ وُجُودِهم، وأسبابِ سعْدِهم، وعوامِلِ نهوضِهم، ومعارجِ رُقِيِّهم وصُعُودِهم. والقرآنُ الكريمُ ختامُ الكتب نزل على أُمَةٍ أمّيّة، فأحياها من مواتٍ، وأوجدها من عدم، فتحولت من رعاة للإبل والغنم، إلى سُراةٍ وهداةٍ للأمم، قادوا مسيرة الإنسانية بحكمة ومهارة، إلى أعظم حضارة، حضارة شهد لها المؤرخون، ووقف على مآثرها وآثارها المتوسّمون، حضارة وارفة الظلال يانعة الثمار، غرس القرآنُ نبتَتَها، وأضرمَ شُعْلَتَهَا، وأَسْرَجَ مَنَارَهَا، وخطَّ مِضْمَارَهَا، وأرسَى معالمها، وحدَّ رُسُومَهَا، وأصَّل علومَها، وأثرى معارفَها، وجَلَّى عناصرَها، وأسَّس بنيانَها، ودعَّمَ أركانَهَا، كان ذلك عندما تمسَّك المسلمون بكتابِ الله تعالى، فقادوا موكب الإنسانية إلى الخير والفضيلة. وبقدر تمسك الأمة بكتاب ربها ينتظم عقدُها وتجتمع كلمتها، بيد أنّ أعداء الإسلام يروِّجون لمقولة باطلة، تلقى صداها عند من يجهل حقيقة الإيمان ويغفل عن روح القرآن، زاعمين أنّ الدين سببُ تخلف المسلمين، وتفرقهم وهوانهم؛ فعليهم أن يعرضوا عنه، ويلتمسوا الهدى من غيره، وهذه المقولة مخالفةٌ للعقل، مُجافيةٌ للنقل، متغافلة عن حقائق الكون وسنن التاريخ،

فما تقدم المسلمون إلا بتمسكهم بكتاب ربهم، وما تقاعسوا وتقهقروا إلا بمقدار تفريطهم فيه.

وبينما يعيش معظم البشر في عصرنا هذا تحت خط الفقر ونير الظلم والقهر، وألوان الجهل والشقاء، يرفل عدد قليل منهم في لباس النّعم وحلل الترف، ونرى بعض الدول التي يقال عنها متحضرة كيف تستمد قوتها من إضعاف غيرها، كيف تضاعف ثرواتها من إفقار الدول النامية، كيف تحقق أمنها بترويع وتخويف الدول الفقيرة، كيف تلمس وحدتها في تفريق وتشتيت الأمم الأخرى، كيف تعمل على سيادة القوانين في بلدانها وبين رعاياها، وتحطم القيم والأصول في تعاملها مع الشعوب التي قهرتها واستضعفتها ونهبتها، ثم في النهاية يزعمون أنهم متحضرون، وأن غيرهم متخلفون رجعيون! ويسمون ما هم عليه من تقدم ماديّ حضارة، رغم انحطاط الفكر، وتردي الأخلاق، وضياع القيم! ألا يشير ذلك إلى مدى حاجة البشرية- من جديد- لحضارة عالمية، تغمرُ الجميع بالعدل، وتظلّلهم بالخير، وتعمُّهم بالرعاية، حضارة لا يكون المال فيها دُولَةً ولا الثرواتُ حِكْراً على طائفةٍ أو فئةٍ، أو طبقةٍ معيَّنَةٍ، بل الخيراتُ والثرواتُ قسمةٌ عادلةٌ للجميع.

من هنا كان هذا البحث الذي أروم به بيان الأسس القرآنية لبناء الحضارات وازدهارها، والمنهج القرآني في نقد الحضارات وتقويمها، من خلال دراسة حضارات رائدة وأخرى بائدة في ضوء القرآن راجيا أن تستفيد منه الأمة، بل والإنسانية التي يخاطبها القرآن. وما أكثر الحضارات البائدة، والقرون الغابرة، بيد أن القرآن وهو كتاب هداية ليس سجلا للتاريخ، حكى لنا ما نستضيء له ونستهدي ونتزود بالعبر، ولقد حكى لنا القرآن بعضا منها، كحضارة عاد وثمود، ومدين وقوم لوط، وحضارة الفراعنة. وما لم يقصه علينا أكثر وأكثر كما يقول تعالى في قصة قارون ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن

قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ القصص: ٧٨.

وفي سورة الأنعام يقول جل وعلا ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ الأنعام: ٦.

أما الحضارات الرائدة وأمثلتها في القرآن فكثيرة:

حضارة داوود وسليمان عليه السلام، وذي القرنين، وغيرهما.

ومن القضايا التي يناقشها كل من كتب في الحضارة "التعليل"، كيف تقوم الحضارات وكيف تسقط، فوقع أغلب الكتّاب بين طرفي نقيض، من يهمل الأسباب المادية تماماً، ومن يتخذ منها إلها مدبرا، من يُغفل الجانب الأخلاقي وينسى دور القيم في ارتقاء الحضارات وصمودها، فلا يلقي بالا للقيم والأخلاق، كما هو السائد الآن في الغرب من أخلاق نفعية انتهازية، وهذا ما انخدع به أصحاب الحضارات القديمة إذ اعتمدوا على القوة والمال، واستبدوا في الأرض وعاثوا فسادا، لإشباع نزواتهم، وإرواء رغباتهم، دون اعتبار لكرامة الآخرين وحقوقهم. "ومهما تطورت الدنيا واختلفت المدنيات والثقافات، فالقصة تظل واحدة، تتكرر بتكرر العوامل والأسباب ذاتها. ولا سبيل للوقاية من مغبتها إلا بأن يصطبغ الناس بالبصيرة القرآنية عندما يعرّف الإنسان على ذاته وينبهه إلى مكان كلا هاتين الحقيقتين من كيانه".[1] .

يعزو الماركسيون مرجع قيام الحضارة وانحطاطها إلى قوة الاقتصاد وضعفه، لا إلى القيم والمبادئ، بل إلى حجم الانتاج والرواج، والازدهار الاقتصادي، إذ الأمر عندهم حتمي لا علاقة له بأقدار ولا فلسفات وأفكار، وهناك من يعزو

(١) منهج الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم، د محمد سعيد رمضان البوطي ص ٥١.

قيام الحضارات على عبقرية أشخاص، وبطولاتهم الفذة، كما صنع توماس كارليل في كتابه الأبطال وعبادة البطولة. (١)

وهناك من حمّل على جانب القدر أو المصادفة وغفل عن الأخذ بالأسباب، ومراعاة السنن الكونية والاجتماعية" قانون الكون"، وهناك من قال: الحضارة كالإنسان يبدأ طفلا ثم شابا ثم كهلا ثم شيخا، ثم ينتهي به الأمر إلى الهرم والعجز، فالحضارات تهرم وتشيخ! أما نحن فمع إيماننا بالقدر ويقيننا أن كل ما في الكون يسير بتقدير العزيز العليم، نؤمن كذلك أن الله تعالى جعل لهذا الكون سننا "قوانين" مطردة، وفقًا لها تقوم الحضارات وتزدهر، أو تتراجع وتنحدر. فكما يقر العلماء على اختلاف معتقداتهم بأن للكون قوانين ثابتة تحركه وتنظمه، فينبغي الإقرار بالسنن الاجتماعية التي تنم عن عدل الله وحكمته، وتشهد بوحدانيته.

وسنن الله تعالى لا تتبدل ولا تتحول، كما أنها لا تحابي ولا تجامل، ولا تستثني، فهي قواعد ثابتة لا تتغير، مطردة لا تتخلف.

هناك من الحضارات ما سقط من ذُرى مجده وعنفوان قوته، ومنها ما سقط رويدا رويدا، ولقد بين الله تعالى أن من شأنه إهلاك الأمم بغتة من حيث لا يتوقعون، أو تدرُّجًا، وهم يراقبون نهايتهم ويمضون إلى مصيرهم.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ الأعراف: ٩٧ – ٩٩ ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ النحل: ٤٥ - ٤٧

(١) On Heros and Hero Worship. p1841 نقلاً عن معركة الحضارة قسطنطين زريق ١٩٣

تساؤلات البحث وحدوده: يجيب هذا البحث عن تساؤلات عدة: لماذا تخلّف المسلمون عن ركب الحضارة وما هو السبيل لنهوض الأمة وعودتها لأمجادها؟ ما عوامل قيام الحضارات ومعاول هدمها؟ ما المنهج الأمثل في تقييم الحضارات؟ كيف نعالج ظاهرة الانبهار بالحضارات المادية؟ كيف نغرس الوعي الحضاري ليزهر في عقول أبناء الأمة! هل الأسباب المادية البحتة هي من تنشئ حضارة وهل سقوطها كذلك أمر مادي بحت، كما زعم بعض مفكري الحداثة، عابد الجابري وغيره؟

أهمية البحث: لهذا الموضوع أهميته البالغة؛ وذلك لوجوهٍ عِدَّةٍ، منها:

١- أنه يتعلق بالإنسان، وهو محور القرآن، نزل لصلاحه وهدايته، والارتقاء به ماديًّا وروحيًّا، كما يتصل بمقاصد القرآن وخصائصه فهو كتاب هداية وبيان وإعجاز، حوى ما لا غنى للإنسانية عنه من عوامل قيام الحضارات ونهوضها ومظاهرها، وأسباب ركودها وانحطاطها، حتى نقتبس من الماضي للحاضر، ونستشرف آفاق المستقبل.

٢- في القرآن صور مشرقة ومشاهد حية لحضارات رائدة راشدة ساهمت في تقدم الإنسانية ورقيها، ما أحوجنا إلى استحضار تلك الصور والإمعان في تلك المشاهد لنلتمس الزاد والعبر.

٣- أهمية معرفة سنن الله في قيام الحضارات وازدهارها، وسننه تعالى في انحدارها وسقوطها، فلمعرفة السنن أهمية بالغة للساسة والمربين والحكماء، لذا اعتنى القرآن ببيانها، مقالاً وحالاً، نصًّا وقصصاً.

٤- إن معرفة خصائص القرآن ومقاصده من الأمور الضرورية للتعامل معه واستشعار عظمته وتذوق حلاوته وتنسم عبيره واقتباس أنواره، فهو كتاب تعُّبد وريادة، ودستور حضارةٍ وقيادة، يضم بين دفتيه منهاج الحياة وشريعة الوجود وهدي الإنسانية إلى سبيل الرشاد .

أسباب اختيار موضوع البحث:

١. رغم أهمية هذا الموضوع، فلا أكاد أجد دراسة علمية قرآنية حوله مما دفعني إلى اختياره، وأقنعني بكونه جديراً ببذل الوقت والجهد؛ لما فيه من فائدة للأمة الإسلامية، والدراسات الإنسانية.

٢. اهتمامي بهذا الموضوع وقد قدمت فيه دراستين: **الحضارة في ضوء القرآن الكريم**، بحث من تأليفي، ضمن موسوعة التفسير الموضوعي، كرسي القرآن وعلومه جامعة الملك سعود. **القرآن والحضارة** بحث لي مقدم لعمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية ٢٠١١م، ودراسة عن ذي القرنين في مجلة كلية الدراسات الإسلامية جامعة الأزهر بالشرقية.

٣. حرصي على أن أقدم شيئاً مفيداً للإنسانية يضيء طريقها ويقود سفينتها، ويلقي المرساة في مرفأ الأمان.

٤. أسفي على ما عليه عالمنا الإسلامي من تأخُّرٍ وجمودٍ، أطمعَ فينا أعداءنا؛ فرأيت من واجبي أن أوقد مصباحاً في هذا الظلام حتى يُسْفِرَ الصُّبحُ الذي طال انتظارُه.

الدراسات السابقة: لم أجد من خلال تتبُّعِي وبحثِي في الجامعاتِ والمكتباتِ العامَّةِ ودورِ النشر ومواقعِ الشبكةِ دراسةً وافيةً حول هذا الموضوعِ، وإن وجدتُ بعضًا من البحوثِ القيِّمة، التي لها صلةٌ بهذا الموضوعِ، لكنها لم تتعمقْ في النظرةِ القرآنيةِ، ولم تتعرض للدراسة الموضوعية لآيات القرآن، ومن ثمَّ فإنها لم تقدِّم لنا بتوسُّعٍ وعمق المنهج القرآني والمنطلق لبناء الحضارات،

ومن هذه الدراسات:

١. **الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية** : للدكتور توفيق الواعي ط دار الوفاء بالمنصورة.

٢. **سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها:** محمد هيشور. المعهد العالمي للفكر الإسلامي 1996 .

٣. **السّنن النّفسيّة لتطور الأمم:** غوستاف لوبون نقله إلى العربية :عادل زعيتر ط دار المعارف ١٩٥٧م.

٤. **عوامل انهيار الحضارات كما تصورها القصص القرآنية في سورة الحجر وغفلة العالم عنها:** خليفة بن سيف بن حميد العامري، كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة الجنان لبنان مجلد ٢ عدد ٣ (٢٠١٨).

أما بحثي هذا فقد ركزت فيه على عوامل قيام الحضارات ومعاول سقوطها وهدمها في ضوء ما جاء في القرآن من حديث عن الحضارات الرائدة والحضارات الغابرة.

أهداف البحث:

١- الوقوف على معالم المنهج القرآني في حديثه عن الحضارات، ومعرفة عوامل ازدهار الحضارات ومعاول انهيارها وأفولها، وما المنهج الأمثل والميزان الأقوم في نقد الحضارات.

٢- النظر والاعتبار في أحوال الأمم الغابرة والحضارات الآفلة والصفحات المطوية في تاريخ الإنسانية؛ لنأخذ من ماضينا لحاضرنا ونستشرف آفاق مستقبلنا.

٣- التعرُّفُ على روعة المنهج القرآني، ورفعته، وبيانه، ودقته وموضوعيته وشمول هدايته، كما نقف على وجهٍ من وجوه إعجاز القرآن الكريم؛ وذلك من خلال حديثه الدّقيق عن الحضارة السابقة وميزانه القويم في النقد الحضاري وتوعيته الحضارية .

٤- نتلمَّسُ كيف يربطُ القرآنُ بين عبقِ الماضي، وروح الحاضر ويستشرف آفاق المستقبل، ويمنحُ قارئه نظرةً عميقةً ورؤيةً واضحة، وبصيرةً نافذةً، ووعياً حضارياً، واستشعاراً للمسئولية الحضارية، وفي هذا ردٌّ بليغٌ على من يطالب بالانفصام بين الماضي والحاضر، بدعوى تاريخية النص، أو أنسنته.

منهج البحث: اعتمد هذا البحث على المنهج الاستقرائي من خلال جمع الآيات، والتحليلي بتدبرها واستخلاص العبر منها، والوصفي من خلال وصف هذه الحضارات وتحليل أسباب نهوضها وسقوطها، والمنهج المقارن، بالمقارنة بين الرائدة والبائدة. فضلاً عن مراعاة المنهجية المتبعة في كتابة البحوث العلمية من العزو والتوثيق والتخريج، وضبط وبيان ما يلزم، وترجمة غير المشاهير وغير ذلك، ولقد اضطررت لاختصار البحث والاستغناء عن بعض مباحثه لما شددت عليه اللجنة المنظمة من الالتزام بعدد الصفحات، وفق الله الجميع لكل خير.

تمهيد: تعريف الحضارة:

الحضارة: أصلها في اللغة: الإقامة في الحضر كما أن البداوة: السكنى في البادية، والتحضر والحضرة والحاضرة: خلاف البادية وهى المدن والقرى والريف، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار، والحاضر القوم النزول على ماء يقيمون به ولا يرحلون عنه (١) .

أما عن الحضارة في معناها الاصطلاحي: فهناك تعريفات كثيرة نذكر منها ما يلي:

عرّف ابن خلدون الحضارة بقوله" :الحضارة :إنما هي تفنُّنٌ في الترف، وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه ، وعدّ ابن خلدون العمران لونًا من ألوان الحضارة، وهو تابع للترف الذي يأتي منها، قال" :البناء واختطاط المنازل من منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف، والدَّعة (٢).

وعرفها الأستاذ محمد محمد حسين: بأنها كل ما ينشئه الإنسان في كل ما يتصل بمختلف جوانب نشاطه ونواحيه :عقلاً وخلقًا ومادة وروحًا ودينًا ودنيا (٣). **وهذا التعريف تعريف شامل** لجوانب الحضارة المادية، والروحية، وأهدافها الدينية، والدنيوية. وفى المعجم الوسيط: مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني ومظاهر الرقى العلمي والفني والأدبي والاجتماعي (٤).

كما عرفها حسين مؤنس أنها: ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصوداً أم غير مقصود، وسواء أكانت الثمرة

---

(١) لسان العرب ٩٠٨/٢ ، ٩٠٩ باختصار مادة ح ض ر.

(٢) مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: ت 811 هـ .ص. 172 .

(٣)الإسلام والحضارة الغربية د.محمد محمد حسين ص ٤.

(٤)المعجم الوسيط (١ / ١٨١) .

مادية أم معنوية. (١)

ويظهر قصور هذا التعريف: أنه اختزل الهدف منها فقط في تحسين حياة الإنسان دون تحقيق فضيلة نبيلة أو غاية سامية.

وعرفها توفيق السبع بأنها: الحصيلة الشّاملة للمدنيّة والثّقافة وهي مجموع الحياة في صُورتيها المادّيَّة والمعنويّة . (٢)

نخلص مما سبق إلى: أن الحضارة سعى الإنسان المتواصل إلى تحقيق غايته في هذا الوجود، هذه الغاية التي تدور حول القيام بواجبات العبودية لله تعالى وعمارة هذا الكون في ضوء التشريعات الإلهية، ومن خلال تحقيق هذه الغايات تتحقق الوسائل وهي تأمين الضرورات وتلبية الحاجات، والتمتع بالتحسينات، فالحضارة ليست مجرد تصورات أو مفاهيم، ولكنها أيضاً تطبيق لهذه التصورات والقيم والمبادئ، والحضارة باختصار: عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني.

(١) الحضارة، د. حسين مؤنس ص ٤٥

(٢) قيم حضاريّة، د. محمد توفيق السبع ٤١.

المبحث الأول: صور ومشاهد لحضارات رائدة

المطلب الأول: تمكين الله لذي القرنين:

نظرة القرآن للحضارات القديمة على أنها جزءٌ من تاريخ الإنسانية وتراثها، نلمس فيها الإيجابيات ونقف على السلبيات، ونستخلص عوامل البناء ونلحظ معاول الهدم، وهذه القصة نموذج لحضارة إيمانية رائدة وقيادة راشدة، قصة ذي القرنين ذلك العبد الصالح الذي مكَّن الله له ومنحه الأسباب المعينة على التمكين والظفر. جال أقطار الأرض، ينشر الحق ويقيم العدل، ويواجه الظلم، ويتصدى للفساد، ويقيم العمران. فبلغ أقصى الغرب كما بلغ أقصى الشرق، وبلغ أيضا منطقة وصفها القرآن الكريم بما بين السدين، وكان له في كل رحلة أعمالٌ جليلةٌ ومواقف عظيمةٌ وصفحاتٌ مشرقةٌ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾[الكهف: ٨٣ – ٨٥]

رجل صالح مكَّن الله له، وهيأ له الأسبابَ فأخذ بها، واجتهدَ في استثمارها وتطويرها، فطوَّف في الأرض، وجال في أقطارها، قائداً ظافراً، وحكماً عادلاً، وسلطاناً قوياً ، وعبداً شكوراً، فملأ الدنيا عدلاً ونوراً . جاءت القصة جوابا عن سؤالهم عن شأن هذا الرجل الصالح الذي مكَّن الله تعالى له في الأرض، وأعطاه العلم والحكمة وألبسه ثياب العز وتاج الوقار والهيبة.

أما اسمه فقد اختلف المفسرون فيه على أقوال كثيرة لكنها مبنية على الظن والاحتمال.

والذي يبينه القرآن: أنه ملك مؤمن على علمٍ وصلاحٍ مكَّن الله له فسعى جاهدا ومتجرّدا لنشر الحق والعدل، ثم إن السؤال ليس عن شخص ذي القرنين، وإنما عن حياته وجهاده وصلاحه وأمجاده .

قال البغوي: "والأكثرون على أنه كان ملكاً عادلاً صالحاً " [١] .

وفي قصص القرآن تركيز على العبر والعظات، دون اعتبار بالأشخاص والأزمان والأمكنة. "ولعل من الخطأ أن يشغل الدراسون والمؤرخون أنفسهم بالبحث في هذه الاعتبارات، وإنما المقصد استخلاص العبر والدروس، وإبراز دورها في النفس والمجتمع، حتى تؤثر في النفوس والعقول، وتعطي فاعلية وتوجيهاً في الحياة، ومما يعمم فائدة العبرة أنها غير مقيدة بزمان ولا مكان، والمحللون لأحداث التاريخ بمنهج القرآن لا يسألون عن الأحداث متى كانت بقدر ما يسألون عن: هل صحيح وقعت؟ ولماذا وقعت؟ حتى يدركوا مواطن زلل الأمم ومواقع خطواتها الصحيحة السليمة، حيث من أفضل ما يقدم المجرب أو المربي لغيره هو أن يصف له طريق حياة الأسوياء، من البشر فيتبعها، ويوضح له طريق أهل الانحراف والفسوق فيتجنبها ويتقي شرهم، والباطل من أعمالهم.[٢] .

طريق التمكين: بين القرآن كيف مكّن الله لذي القرنين، كيف وصل إلى ذروة القيادة وطليعة الريادة؟ ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾ : مكّن الله له في الأرض ووهبه أسباب النصر والتمكين وأصول السياسة وفنون التدبير، فأحسن استغلال هذه المنحِ والمواهبِ على أتمّ وجهٍ، بل جعلها ركيزةً ومنطلقاً إلى ريادةِ الكون بالعلم والإيمان، والعدل والإحسان. مكَّن له صاحبُ العظمة والسلطان تمكينا عظيما في أنحاء المعمورة، وآتاه من الأسباب ما يحتاج إليه في توطيد ملكه وبسط سلطانه وكبتِ أعدائِهِ وتحقيق مراده. والسبب: هو الوسيلة التي يُتوصَّل بها إلى المطلوب.

---

(١) معالم التنزيل للبغوي (٣ / ٢١٢) .

(٢)على هامش التفسير عبد القادر المغربي ص ١٢٥- ١٢٩

قال ابن عباس:﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ عِلْماً يتسبب به إلى ما يريد، وقيل: هو العِلْم بالطُّرق والمسالك [1]. ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أي: سلك وسار طريقاً يوصلُهُ إلى المقصود، وأخذ بكلِّ ما أمكنه تحصيله من علومٍ، وتتبع السببَ والوسائل التي تعينه على تحقيق أهدافه وآماله في الدعوة والإصلاح ونشر العدالة والرحمة في شتى الأرجاء، فكان تمكينه من منطلق الأخذ بالأسباب، وفق نواميس الكون، حيث هداه الله للأسباب ووفقه إليها.

الرحلة الأولى إلى المغرب:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾

ما كان لذي القرنين أن يقوم برحلاته الثلاثة في أقاصي الغرب والشرق وبين السدين، إلا لأنه كان يملك من وسائل النقل البحري والبري ما يسر له هذه المهام ومن العقول والسواعد ما ذلل تلك الصعاب، وهذا يحملنا إلى القول بأنه كانت لديه مرافئ، تبحر منها السفن، وأساطيل وترسانة بحرية، وصناعات ضخمة، وخلفها زراعات، ما يعني أننا أمام أمة قوية غنية ومجتمعات نشيطة، وحياة رغيدة، فما كان ذو القرنين لينطلق إلا من ركيزة قوية وقواعد متينة، وما كان لينشغل بإصلاح العالم إلا إذا كان قد نجح في مملكته، وحقق الأمن والرخاء والفائض، ورسّخ العدل. فكانت له ثلاث رحلات رئيسة، والظاهر أنه انطلق إلى رحلته الأولى جهة المغرب، حيث بلغ بجنوده أقصى الغرب مستعيناً

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٥ / ١٨٥ ، وفي الطبري عن ابن عباس سبباً : علماً. جامع البيان (١٨/ ٩٤). وتفسير ابن أبي حاتم» (٧/ ٢٣٨٢).

بما هيأه الله له من أسبابٍ، وهدف الرحلة كما يظهر من خلال الآيات نشر الحق، وهداية الناس، وإقامة العدل، انطلق في رحلته حتى شاهد غروب الشمس ﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ عين ماء ذات حمأة، وقرئ ﴿فِي عَيْنٍ حامِيَةٍ﴾ يعني أنها تغرب في عين ماء حارّة، تلك إشارة إلى نظر المؤمن وتمتعه بجمال الكون وروعته فللنظرة الجمالية انعكاسها على جمال الحضارة. جمعت بين كونها حمئة وبين حرارتها . (١)

﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ ﴾ ، وفي تخيير ذي القرنين رحمه الله بين أن يعذبهم وبين أن يتخذ فيهم حسنا، ما يدل على أن فيهم من انغمس في ظلمٍ بيّنٍ، وصدٍّ عن الحق، مما يستوجبُ معاقبتَهم، وفي هذا ما يرشدُ إلى وجوب مجابهة الظالمين وكفِّهم عن ظلمهم، وجاء التعبير بسوف : ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ للدلالةِ على إمهاله لهم حتى تقام عليهم الحجج، فإن هم أصروا على كفرهم وظلمهم فقد استوجبوا العقاب . **وقوله** ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾أي يوم القيامة فيعذبه العذاب الشديد الأليم، الذي يحارُ العقل في أمره، لأنه لم ير مثله ولا قريباً منه ليعتبره به " (٢) . ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ۖ ﴾ وأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فله الحسنى جزاءً، أي يستحقُّ البشارةَ بها فضلاً عن حسن معاملته في الدنيا، وسنقول له من أمرنا يسراً : فهو أهلٌ لكلِّ فضل وسماحةٍ، " فالمؤمن المستقيم

---

(١) قرأ ابن عاصم وعامر وحمزة والكسائي " حامية " أي حارة، والباقون " حمئة " أي كثيرة الحمأة وهي الطينة السوداء، تقول: حمأت البئر حمأ (بالتسكين) إذا نزعت حمأتها ، وحمئت البئر حمأ (بالتحريك) كثرت حمأتها ، ويجوز أن تكون " حامية " من الحمأة فخففت الهمزة وقلبت ياء ، وقد يجمع بين القراءتين فيقال: كانت حارة وذات حمأة . النشر في القراءات العشر ٣١٤/٢ والسبعة ٣٩٨ .

(٢)نظم الدرر للبقاعي ٥٠٢/٤ بتصرف

يجد الكرامة والودَّ والقربَ من الحاكم العادل، ويكون من بطانته وموضع عطفه وثقته ورعاية مصالحه وتيسير أموره، أما المعتدي المتجاوز للحدّ، المنحرف الذي يريد الفساد في الأرض فسيلقى العذاب الرادع من الحاكم المقسِطِ في الدنيا، ثم يردُّ إلى ربه يوم القيامة ليلقى العقوبة الأشد بما اقترفت يداه في حياته الأولى " [1].

الرحلة الثانية إلى أقصى الشرق :

بعد رحلةٍ ناجحةٍ بلغ فيها ذو القرنين أقصى الغرب، سلك طريقاً آخر إلى أقصى الشرق ليواصل مسيرته في حمل بشائر الخير ونشر مشاعل النور . قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ ﴾الكهف: ٩٠ - ٩٢

﴿ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴾ أي : طريقاً آخر غير الطريق الأولى وهي التي رجع بها من المغرب وسار فيها إلى المشرق .قال ابن عطية : " وقوله ﴿ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴾ المعنى : ثم سلك ذو القرنين الطرقَ المؤديةَ إلى مقصِدِهِ، وكان ذو القرنين، على ما وقع في كتب التاريخ يدوس الأرض بالجيوش الثقال، والسيرة الحميدة، والإعداد الموفي، والحزم المستيقظ المتقد، والتأييد المتواصل، وتقوى الله عز وجل، فما لقي أمة ولا مرَّ بمدينة إلا دانت له، ودخلت في طاعته، وكل من عارضَهُ أو توقف عن أمره جعله عظةً وآيةً لغيره" [2]

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴿٩٠﴾ ﴾ أي : أقصى الشرق وجدها تطلع على قوم ليس لهم ما يسترهم، ، فلا يأوون إلى شيء من العمارة ؛ قيل : لأنهم بأرض لا يمكن أن يستقرَّ عليها البناء، أو

(١) مباحث في التفسير الموضوعي تأليف الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم ص ٣٠٥ بتصرف

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ٣/٥٤٠

لما هم عليه من بداوةٍ، وخلوٍّ من جميع مظاهر التمدُّن والرقيّ . ولا بدّ أنه رحمه الله – وقد حمل مشاعل النور وراية الإصلاح — قد ارتقى بتلك البلاد ونهض بها وألحقها بركب الحضارة، فرسالة المؤمن رسالة تنوير وتحرير، رسالة إصلاح وتعمير، رسالة نهوض وتطوير. قال البقاعي: " (وقد أحطنا) بما لنا من العظمة، (بما لديه) أي كله من الأمور التي هي أغرب المستغرب، (خبراً) أي من جهة بواطن أموره فضلاً عن ظواهرها، فلا تستغرب إخبارنا عن ذلك ولا عن أمر أصحاب الكهف،

ولا يُظّنّ أن تفضيل أمر الوحي خفيٌّ عنا، لأنا مطلعون على خفايا الأمور وظواهرها، شواهدها وغوائبها، وكيف لا ونحن أوجدنا، ولكنا لا نذكر من ذلك إلا ما نريد على ما تدعو إليه الحكمة " (١)

الرحلة الثالثة: بناء السدين، أهم مشروع في تاريخ البشر:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ الكهف: ٩٠ ـ ٩٨ ﴾

بعد أن ساهم في نهوض هذه الشعوب البدائية الفقيرة وتنويرها، توجَّه بهذا الخير إلى موضعٍ عبَّر عنه القرآن بأنه: بين السدين، منطقة يحيط بها جبلان وَعِرانِ، حيث يتسلل المفسدون من قوم يأجوج ومأجوج إلى البلاد المجاورة، ينهبون ثرواتها ويعيثون فيها فساداً، فطلب أولئك المستضعفون المنكوبون من

(١) نظم الدرر للبقاعي (٤ / ٥٠٣) .

ذي القرنين أن يحميهم من أولئك المعتدين، واقترحوا عليه أن يبني سداً منيعاً يحجزهم، على أن يجمعوا له ما يشاء من أموال وثروات، وفي هذا ما يدل على ثقتهم في أمانته وقدراته . ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ وجد ذو القرنين من دون السدّين قوماً لا يكادون يفقهون قول قائل سوى كلامهم ، ولا يكادون يُفقِهون أحداً قولهم، مع ذلك تمكن من معرفة مطالبهم وفهمهم وتفهيمهم، بفضل ما وهبه الله تعالى من أسبابٍ .[1]

﴿ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ عرضوا على ذي القرنين أن يعطوه من أموالهم ما يستعين به على بناء السدّ، فقال لهم ﴿ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ أجابهم هذا القائد الزاهد والإمامُ الراشد إلى مطلبهم دون مقابلٍ، فهو صاحب رسالة إصلاح يؤديها في ربوع الكون، فهل يطمحُ في أعراض الدنيا الزائلة أم يجنح إلى همٍ قاصرة، وقد وهبه الله تعالى من العلم والتمكين والفهم والتوفيق ما زاده طاعة وانقياداً وعزماً واجتهاداً في غرس بذور الخير أينما حلَّ . " قال ذو القرنين: الذي مكنني في عمل ما سألتموني من السدّ بينكم وبين هؤلاء القوم ربي، ووطّأه لي، وقوّاني عليه، خيرٌ من جُعلكم، وأجرتكم التي تعرضونها عليّ لبناء ذلك، وأكثر وأطيب، ولكن أعينوني منكم بقوة، أعينوني بفَعَلة وصُنَّاعٍ يُحسنون العمل والبناء. "[2]. " وَهَذَا تَأْيِيدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِذِي الْقَرْنَيْنِ فِي هَذِهِ

(١) يراجع : جامع البيان للطبري ١٨ / ١٠٣ ، قرأ حمزة والكسائي وخَلَف بضمّ الياء وكسر القاف: (يُفقِهون) من أفقهت فلانا كذا أفقهه إفقاها: إذا فهمته ذلك ، والباقون بفتح القاف والياء ، من فقَه الرجل يفقَه فقها . النشر في القراءات العشر ٣١٥/٢ والغاية في القراءات العشر ١٩٩ والسبعة ص ٣٩٩

(٢) جامع البيان للطبري ١٨ / ١١٣ بتصرف .

الْمُحَاوَرَةِ؛ فَإِنَّ الْقَوْمَ لَوْ جَمَعُوا لَهُ حَرْجًا لَمْ يُعِنْهُ أحدٌ، ولوكلوه إلى الْبُنْيَانِ . وَمَعُونَتُهُ بِأَنْفُسِهِمْ أَجْمَلُ بِهِ وَأَسْرَعُ فِي انْقِضَاءِ هَذَا الْعَمَلِ .

وَرُبَّمَا أَرْبَى مَا ذَكَرُوهُ لَهُ عَلَى الْحَرْجِ ". (١)

﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ يقول: أجعل بينكم وبين يأجوج ومأجوج ردما، والردم: هو الحاجز، ولعله سمى السد الذي وعد بإنجازه ردما تواضعاً.

فجمع إلى جانب العلم النافع والخبرة الدقيقة والمهارة الفائقة والإمكانات الهائلة التواضعَ الرفيعَ والإيمانَ العميقَ والنفْسَ الراضية العفيفةَ، والأياديَ السخيةَ النظيفةَ، والأريحية والشَّهامة: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ﴾ . لم يستغل حاجتهم في تجريدِهم من الممتلكاتِ والثرواتِ، كما تفعلُهُ في عصرِنا الحاضرِ الأممُ الغالبةُ " المتحضرة " مع الشعوب المقهورة " النامية " من نهب ثرواتهم وحصد خيراتهم وجني ثمارهم ! والتآمر على بقائهم تحت مطرقة الجهلِ وسندان الاستبداد. ما فعل ذو القرنين كما تفعل تلك الدول التي يقال عنها" متحضرة" التي ترهق الشعوب الفقيرة بالديون المركَّبة، تطوِّقُ بها أعناقهم وتُلهب بها ظهورَهم، وتنتزعُ ولاءَهم وخنوعهم! وترغِمُ أنوفَهم، وتسلب سيادتهم. ﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ ﴾ جيئوني بقطع الحديد، فجعلها بين الصدفين أي حافتي الجبلين حتى إذا ساوى بينهما بما جعل بينهما من زُبر الحديد، قال للعمَّال: انفخوا النار ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا ﴾ فنفخوا، حتى إذا جعل ما بين الصدفين من الحديد ناراً ﴿ قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾، أصبّ عليه نحاسا، وقد استخدمت هذه الطريقة حديثاً في تقوية الحديد ؛ فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته، كما أن النحاس أملس ؛ لا

(١) الجامع لأحكام القرآن (١١ / ٦٠) .

يمكن تسلقُه، فهدى الله ذا القرنين إلى هذه الوسيلةِ الناجحة .﴿ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾ فما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوا الردم الذي جعله ذو القرنين حاجزاً بينهم، وبين من دونهم من الناس، فيصيروا فوقه وينزلوا منه إلى الناس لعلُّوه ومَلاسَته، ولم يستطيعوا أن ينقبوه من أسفله ؛ لسُمْكِهِ وصلابَتِهِ.

هدايات حضارية من قصة ذي القرنين:

١. من عوامل النهوض وأسباب الرقيّ: الأخذُ بالأسبابِ المعِينَةِ على ذلك من الإيمانِ الخالصِ والعلمِ النافعِ والعملِ الصالحِ، مع الإخلاص والتجرد والتوكل واليقين وعلو الهمة.

٢. قيام الحضارات لا يتأتى بين عشية وضحاها؛ بل يأتي بعد جهدٍ جهيدٍ وصبرٍ جميلٍ وإعدادٍ جيّدٍ وتخطيطٍ محكمٍ.

٣. الحضارة الإيمانية تبعث في النفس روح النهوض والأمل وتنمي ملكة الابتكار والتطوير، ويسعى المسلمون لنشر روح الحضارة والرقي في كافة بقاع الأرض ليعم الخير الجميع.

٤. حتى تصل رسالة التوحيد إلى الأمم والشعوب التي لم تصلها بعد لا بد وأن نكون أمة متحضرة متقدمة حتى يسمع العالم لنا، فهذا ذو القرنين يستمع العالم له ويشيدُ بعدله ويحتمي بسلطانه.

٥. ومن الفوائد العظيمة من هذه القصة الكريمة : شكر المنعم وإجلالُهُ والتواضع لعظمته والإقرار بفضله، ففي هذا ما يحفظ النعمة ويزيدها، وفي كفران النعم زوالها وانهيار الحضارات : قال السعدي : " فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل، أضاف النعمة إلى موليها وقال:﴿ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّي ﴾ أي: من فضله وإحسانه عليَّ، وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا منَّ الله عليهم بالنعم الجليلة، ازداد شكرهم وإقرارهم، واعترافهم بنعمة الله كما قال سليمان

عليه السلام، لما حضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم، قال ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾، [النمل: ٤٠]، بخلاف أهل التجبُّر والتكبر والعلو في الأرض فإن النعم تزيدهم أشراً وبطراً " [(١)] مما ينذر بزوال الحضارات .

٦. التأكيد على أهمية طلب العلم والتزود بالمعرفة، والسؤال عما يجهله الإنسان أو السؤال للتثبت من الإجابة، والسؤال هو المفتاح الثاني بعد القراءة لطلب المعارف والعلوم واكتشاف المجهول. وأن العلم والمعرفة والخبرات ملكٌ للإنسانية ليس لأحد أن يحتكرَها.

٧. السياحة في الأرض والتّجوال فيها لا بدَّ وأن تكون هادفةً بنَّاءةً ليس لمجرد المتعة والتسلية، بل لنشر قيم العدالة والخير. كما أن السياحة والتلاقي بين الشعوب يؤديان إلى تلاقح الأفكار وتبادل الخبرات.

٨. النظر والتأمل والاستمتاع بروائع الكون وظواهره الخلابة، كمنظر الشمس وهي تغرب، فيلتقي قرصها وهو آخذٌ بالاحمرار مع زرقة البحار، في مشهد يأخذ بالأبصار، ولا شك أن الجمال من القيم الإنسانية الأساسية.

٩. النجدة والسعي إلى غوث الملهوف ونصرة المظلوم دون تردُّدٍ ولا تقاعس من أسمى القيم الحضارية.

المطلب الثاني: الحضارة الإسلامية في عهد نبي الله سليمان عليه السلام، ومقارنة بين مملكتين:

حين نتأمل قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ نجدُ أنفسنا أمام حضارتين: حضارة اليمن الممثلة في مملكة سبأ تلك الحضارة التي بلغت ذروة التقدم الماديّ، بينما تردَّت إلى قاع الانحطاط الفكري والخواء الروحي، تمثّل ذلك في

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٤٨٦

عبادة الشمس من دون الله، وما صاحب ذلك من أوهام وخرافات، وأساطير وترُّهات. تبدأ الحضارة الإيمانية في بلاد الشام من نصر جنود المؤمنين

الممحصين بقيادة طالوت ومعهم نبي من أنبياء الله، على جالوت وجنوده، فالجهاد دائماً هو الشعلة وهو المنطلق للبناء الحضاري، إذ لا حضارة بدون إزالة الأنظمة الظالمة المستبدة. ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ فَلَمَّا البقرة: ٢٥٠ – ٢٥١.

ثم نجد أنفسنا أمام حضارة وارفة الظلال يانعة الثمار باسقة البنيان مشيدة الأركان، حضارة إنسانية رائدة، وصفحة بيضاء ناصعة في تاريخ بني إسرائيل، مملكة مؤمنة يقود زمامها نبي ملك، جمع بين نور النبوة وبهاء الملك وجلال الحكمة، ملك لمملكة واسعة الأطراف مترامية الأبعاد، ومع ذلك فهي مملكةٌ فتيةٌ قويةٌ ، حصينةٌ متينةٌ بالعلم والإيمان، والنور والبرهان، والعدل والإحسان، والعمل والجهاد والعُدد والعتاد، ملكٌ علت همَّته وتسامت روحُه ومضت عزيمتُه، نبيٌّ أضاءت بصيرتُه وصفت نيتُه نبي الله داود عليهما السلام ثم ولده وخليفته وامتداده سليمان جمع الله لهما بين خيري الدنيا والآخرة، كما سخر الله الطير والوحش والجماد لداود تتجاوب مع تلاوته، وتنسجم مع صوته العذب، كذلك حشر الإنس والجن والطير تحت إمرة سليمان ورهن إشارته، وفي هذه المملكة الراشدة وفي أجواء هذه الحضارة الزاهرة وفي هذه التربة الصالحة النقية نبتت المواهب ونبهت العقول وتسامت الهمم، حين أحس كل فرد في المملكة بقيمته واستشعر أهميته وأدرك دوره المنوط به حتى النملة في الوادي والهدهد في عالمه كان لهما دور عظيم سجله القرآن آيات تتلى وتقتبس

منها العبر . في هذه الحضارة المزدهرة كان للعلم مكانة سامية وللعلماء منزلة رفيعة، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ النمل. ١٥

في هذه الحضارة كان لأحقر الطير وأصغر الحشرات مكانة لائقة، ومُثُلاً مُشرقةً، النملة في مملكة الإنسانية تنادي وتحذر وتعلل وتعذر ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ النمل: ١٧ – ١٩ تحذِّر قومها من أقدام جند سليمان، ملتمسةً العذر لهم بأنهم لن يقعوا في ذلك بقصدٍ، والهدهد جنديٌّ في أعظم وأعجب جيوش الدنيا، يَدِلُّ على سليمان بما حصَّله من علم، ويدُلُّه على اكتشافٍ مهمٍّ ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ النمل: ٢٢ والعلم يحقق الخوارق والمعجزات ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ النمل: ٤٠

لن يعاقب الحاكم القائد هدهده على غيابه إلا بعد أن يسمع لعذره وينصت له وهذا من كمال سياسته وعدله في مملكته ورفقه بالطير، وفي تفقد أحوال الجيش دليلٌ على يقظة القائد ونباهته وإحاطته برعيَّته وجنوده ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا

شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ النمل: ٢٠ - ٢١ وفي قوله ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ دليلٌ على كياسته وفراسته وحسن ظنِّه برعيَّته .

وفي وصف الهدهد لحضارة سبأ وملكتهم دليلٌ على وعيه الحضاري وبلاغة تعبيره، حيث قال ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ لم يقل إني وجدت ملكة عليهم، ولكنه قال ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ ، وكأنه يتعجب ويدهش من قوم سبأ الذين رضوا بامرأة ملكة عليهم، وسلموا زمامهم لها، قد تنقاد للعواطف وتنساق وراء الأهواء فالمرأة فطرت على تقديم العاطفة على العقل وجبلت على أن تنقاد لا أن تقود وعلى أن تحكم لا أن تحكم .

أما عن الأسباب المادية والمظاهر الحضارية التي لمسها الهدهد وقد أوجز في وصفها بأبلغ عبارة فقال ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ فهي وإن كانت امرأة وهذا أمرٌ يخالف الفطرة النقية والعرف الصحيح إلا أنهم منقادون لها راضون بحكمها، وقد مُنحت من المواهب والعطاءات والرفاهية والازدهار ما انعكس على عرشها من الأبهة والصولجان والعظمةِ والسُّلطان والحزم والعزم، والجنود المجندة والرعية المطيعة والكنوز الزاخرة. فاختزلت مقولة الهدهد وصف ما أبهره من مظاهر حضارة مملكة سبأ.

ومن لطائف التفسير ما ذكره الزمخشري مقارناً بين قول الهدهد عن ملكة سبأ ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ وبين قول سليمان ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ النمل: ١٦ وكأني به يقارن لنا بين الحضارتين : يقول :" فإن قلت: كيف قال : ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ، مع قول سليمان

﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلّ شَيْءٍ ﴾ كأنه سوّى بينهما ؟ قلت : بينهما فرق بيّن ؛ لأن سليمان عليه السلام عطف قوله على ما هو معجزة من الله، وهو تعليم منطق الطير، فرجع أوّلاً إلى ما أوتي من النبوّة والحكمة وأسباب الدين، ثم إلى الملك وأسباب الدنيا، وعطفه الهدهد على الملك فلم يرد إلا ما أوتيت من أسباب الدنيا اللائقة بحالها فبين الكلامين بون بعيد " (١).

أما بالنسبة للجانب الروحي في تلك الحضارة، فقد أخذ جانباً كبيراً من حديث الهدهد، وفى هذا ما يدل على أهمية هذا الجانب ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ﴾ النمل: ٢٤ - ٢٦ نعى عليهم الهدهد ما هم فيه من ضلال حيث عبدوا الشمس من دون الله وهى مخلوقة مسخرة بأمر الله، وهناك ملايين النجوم التي تكبرها آلاف المرات فضلاً عن ملايين المجرات التي تحتوى على شموس أكبر من شمسنا، فالشمس حلقة من الفضاء أو كحبة رمل في صحراء ، فما بالنا بالكرسي وكيف بعرش الرحمن في عظمته ؟ فلم يخفَ على الهدهد جانب الضعف في حضارة قوم سبأ، ولم ينبهر بتلك المظاهر المادية ولم يركن إلى الإطناب في وصفها والإعجاب بها، بل أنكر عليهم معتقداتهم الفاسدة وتصوراتهم الضالة. ثم يطير الهدهد مجددا إلى مملكة سبأ لكنه في هذه المرة مبعوثا من قبل نبي الله سليمان يحمل رسالة لبلقيس بطريقة عجيبة فريدة في عالم الاتصالات والمواصلات،

(١)الكشاف (٣ / ٣٦٥) .

حيث هيأ الله لسليمان ملكا عجيبا وتمكينا فريدا، وكان قد دعا ربه فقال ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ ﴾ ص: ٣٥ – ٣٩

فكان من مظاهر هذه الحضارة العجيبة سهولة الاتصال بوسائل تفوق أحدث ما توصل إليه البشر الآن في عالم الاتصالات، وكان من مظاهر هذا الملك الطيران الآمن المريح اللين السريع الموجَّه حيث شاء وبأي عدد شاء بوسيلة غير مسبوقة قال تعالى ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ الأنبياء: ٨١﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ ﴾ سبأ: ١٢ فبين تعالى سرعتها الفائقة، كما بين ليونتها وأمانها، وسهولة توجيهها . وكان من مظاهر هذا الملك العجيب الغواصون من الشياطين الذين يغوصون في أعماق البحار فيستخرجون كنوزها ونوادرها، قال تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ الأنبياء: ٨٢، والبناؤون المهرة من الشياطين الذين يشيدون القمم السامقة، من قلاعٍ فوق أعالي السفوح، وقصورٍ منيفةٍ وصروح، قال تعالى ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ ص: ٣٧ . يصنعون ويُنشئون له ما يشاء من أبنية مرتفعة للعبادة والسكنى، وتماثيل ينحتونها، وقصاع كالحياض التي يجبى فيها الماء، وآنية الطبخ ثابتة على قوائمها لعظمها، لتأكل منها الآلاف المؤلفة من الحشود والوفود والجنود، قال تعالى ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ سبأ: ١٣

ومن عوامل ازدهار هذه الحضارة: وفرة الخامات اللازمة للبناء وغيره، فقد أسال الله تعالى القطرَ لسليمان لتفيض بالنحاس المذاب الذي يستخدم في أغراض السلم والحرب، كما سخر الله تعالى له الجن يعملون بين يديه فيشرف على عملهم ويوزع عليهم المهام، فسخر له الشياطين في بناء وتشييد المساكن والمحاريب، وصناعة القصاع الكبيرة، والتماثيل، وفي الغوص لاستخراج كنوز البحار، قال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ سبأ: ١٢.

ويظهر تحضُّر ملكة سبأ في حوارها مع قومها وأخذها بمشورتهم واعتدادهم بقوتهم وتسليمهم لها بما يدل على قوة مملكتها، وعراقة أركانها، فها هي تشاورُ بطانتها، وتسمع لرأيهم، وهاهم يثقون بتصرفها ويفوضونها، كما يظهر ذلك في الهدية العجيبة التي أرسلتها لسليمان وجمعت فيها النوادر والغرائب والتُّحف واللطف إغراء له إن كان من أولئك الملوك الذين تغريهم الهدايا وترضي غرورهم وتكسر حدة غضبهم ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ النمل: ٣٢ - ٣٥ .

وعندما وصل موكب الهدية التي احتالت بها لتستميل سليمان عليه السلام وتخطب وداده، غضب سليمان غضبة شديدةً، كيف تظنُّ أن هديتها ستثنيه عن دعوته! فقال كما أخبر القرآن ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ النمل: ٣٦ - ٣٧ . هنالك ظهر للمرأة أنها أمام ملك رسول لا طاقة لها به وقرر سليمان أن يأتي بعرشها قبل أن تأتي خاضعة له

مستسلمة ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ النمل: ٣٨ – ٤٠.

آيةٌ من آيات الله العجيبة انتقل بها العرش في لمح البصر، لم تحمله طائرات الشحن، بل جاء بخلاف العادة كرامة لهذا الذي عنده علم من الكتاب ومعجزة لنبي الله سليمان فكرامات الأولياء امتداد لمعجزات الأنبياء، وهكذا نجدنا أمام حضارة فريدة لا مثيل لها في هذا الوجود، جمعت بين الأخذ بالأسباب وبين خوارق العادات التي تقع في الأوقات المناسبة بالأمور العجيبة.

وحين رأت عرشها بعد أن نكرُّوه لها حتى يخفى أمرُه عليها وسألوها:

أهكذا عرشك ؟ كان الأمر مدهشاً، والسؤال مُلغزًا محيّراً ، فأجابت إجابةً تعرب عن سرعة بديهتها، ورصين بلاغتها حيث قالت : كأنه هو!

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ النمل: ٤٢ ، بعد ذلك دعيت إلى دخول الصرح وهو أبرز ما أنتجته الحضارة السليمانية وأبدعته أنامل المهرة من الإنس والجن، ودليل ما وصلت إليه هذه الحضارة من أسباب العمران ومظاهر الحضارة، حتى ظنت الملكة وقد دعيت لدخول هذا القصر المنيف والبناء الزجاجي الشامخ أنها تخوضُ في لُجَّةٍ فكشفت عن ساقيها حتى لا تبتل ثيابُها، وهنا كشف لها سليمان أنه صرح مبني بناء محكماً من زجاج وتحته الماء الجاري، فلم تتمالك نفسَها بعد أن رأت هذه الآيات العجيبة المتوالية والمظاهر الحضارية المبهرة أن تابت لربها وأعلنت إسلامها لله رب العالمين متبعة لسليمان عليه السلام، مسلّمة له

﴿ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٤ ﴾ النمل: ٤٤.

هدايات حضارية من هذه القصة:

١. واجب أمة الإسلام أن تكون متحضِّرةً متقدِّمةً؛ فإن هذا من مقاصد هذا الدين الذي أمر بالتحضُّر والرُّقي .

٢. الأخذ بالأسباب المعينة والمؤدية إلى الترقّي والنهوض. والعدل والحرية مما يقوي الانتماء ويوثق الولاء ويفتق المواهب ويفجِّرُ الطاقات. والولاء للحاكم. العادل ومحبته والنصح له من سمات المجتمع المتحضر .

٣. العناية بالأبنية ، والمنشآت مع مراعاة عنصر الجمال.

٤. وجوب تفقد الراعي للرعية والقائد للجند والنظر في شئونهم والتعرف على أحوالهم.

٥. المسارعة إلى نشر الحق والعدل وصرف الهمة إلى ذلك من القيم الحضارية.

٦. تعفف الحاكم وتساميه عن أعراض الدنيا من أسباب الرقي والازدهار .

المبحث الثاني: صور ومشاهد لحضارات بائدة

المطلب الأول: حضارة عاد وثمود.

أولاً: قوم عاد :

(١) **المظاهر الحضارية:** تحدَّث القرآن الكريم عن قوم عاد وعن حضارتهم التي تضرب بجذورها في أعماق التاريخ، وقد صارت مثلا في ازدهارها وتطاول بنيانها وقوتها المادية، وَكَانَتْ مَسَاكِنُهُمْ بالأَحْقَافِ فِي جَنُوبِي الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ .قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾ الأعراف: ٦٩ ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ﴾ الأحقاف: ٢١

فلقد متَّعهم الله بقوة وعافية في الأبدان، وبسطة في الأجسام، فاقوا بها من سبقهم ومن بعدهم، فكانت قوتُهم أمراً عجيباً خارقاً، وكانت موضع اهتمامهم وتنافسهم، لذا قال لهم هود عليه السلام مرغِّبا إياهم ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ هود: ٥٢ : ويا قوم استغفروا ربكم من الذنوب والخطايا ثم توبوا إليه توبة خالصة، وفق منهجه تعالى الذي شرعه، يرسل السماء عليكم بالمطر الغزير المتتابع، ويزدكم عزة ومنعة إلى عزتكم ومنعتكم، وقوة روحية إيمانية إلى جانب قوتكم المادية، ولا تُعرضُوا عن دعوة الله مؤثرين البقاء على الإجرام والبطش . ولقد مكَّنتهم هذه القوة البدنية من البناء والعمران، بل حملتهم على التطاول على خلق الله، وعلى أن يتيهوا في الأرض كبراً وتحدّياً وازدراءً لمن دونهم، ونسوا عاقبة من سبقهم من المكذبين، وأصيبوا بداء العُجب، وامتلأت نفوسهم بالغرور الزائف، وظنوا أنهم ملكوا الدنيا وأن مقاليد الأمور طوع بنانهم ورهن إشارتهم، قال تعالى ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ

أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ فصلت: ١٥

وأنكر عليهم هودٌ عليه السلام هذا الغرور والعُجْب الذي أصابهم فقال ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ الشعراء: ١٢٨ – ١٣٤

والريع: كل مكان مشرف من الأرض مرتفع، أو طريق أو واد، والمصانع : جمع مصنعة، والعرب تسمي كل بناء مصنعة، وجائز أن يكون ذلك البناء قصورًا وحصوناً مشيدة، وجائز أن يكون مآخذ للماء [١] .

قال ابن كثير رحمه الله : " وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب والقوة والبطش الشديد، والطول المديد، والأرزاق الدارَّة، والأموال والجنات والأنهار، والأبناء والزروع والثمار. [٢] أنكر نبيهم كيف يبنون بكل مكان مرتفع بنياناً محكماً هائلاً مبهراً ظاهرًا مشرفًا، عبثاً لا للاحتياج إليه بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة والتطاول في البنيان، فهذا تضييع للزمان وإتعاب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ والمصانع البروج المشيدة والبنيان المخلدة، وقيل مأخذ الماء، ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ أي لكي تقيموا فيها أبداً! وذلك ليس بحاصل لكم بل زائل عنكم، كما زال عمن كان قبلكم.

ذكر " هود عليه السلام قومه بما يسّره الله لهم من أسباب الثروة والرفاه، وبما كانوا ينشئونه بسبيل ذلك من سدود و منشآت " [٣] .

---

(١) تفسير الطبري – (١٩ / ٣٧٥) .

(٢) تفسير ابن كثير (٣ / ٤١٥).

(٣) التفسير الحديث ، دروزة ٣ / ٢٥٥

ووجه العبث في بنائها أنهم يغالون في الارتفاع بها مفاخرة، للهو لا للحاجة... فلم ينكر عليهم نبيهم نفس البناء الذي هو مظهر القوة، وإنما أنكر عليهم الغاية المقصودة لهم من ذلك البناء الشامخ. فمحط الإنكار قوله: {تَعْبَثُونَ}. ولا شك أن كل بناء شامخ لا يكون لغاية شريفة محمودة، فهو عبث ولهو باطل.

والمصانع: مجاري المياه، أو هي القصور، وعلى القولين فهي دليل معرفتهم بفن التعمير علماً وعملاً، وبلوغهم فيه مبلغاً عظيماً. (١) ومن هنا يتبيَّن لنا كيف مكَّن الله تعالى لعادٍ ما لم يمكِّن لكثير من العباد قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ الأحقاف: ٢٦ .**وفي سورة الفجر**: إشارةٌ لمعلمٍ آخر من معالم حضارة قوم عاد : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ ﴾ الفجر: ٦ – ٨ . مدائن مشيدة وقصور ودور منيفة، ليس لها مثيلٌ فيما مضى، في شموخها وارتفاعها، مع طول الأجساد وقوتها." وَسَوَاءٌ عِمَادُ بُيُوتِهِمْ وَقُصُورِهِمْ، فَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ طُولِ أَجْسَامِهِمْ، وَوَفْرَةِ أَمْوَالِهِمْ، وَتَوَافُرِ الْقُوَّةِ عِنْدَهُمْ " . (٢) هذه المدينة بين عدن وحضرموت وقيل مدينة أخرى قديمة، دمشق أو الإسكندرية. والله أعلم. (٣)

والظاهر أنها كانت في جنوب اليمن، مدينة عظيمة، ذات قصور منيفة، ودور فسيحة، وأسواق عامرة، وملاعب ومنتزهات وحدائق مبهجة.

---

(١) تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير (ص٣٩٥).

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن – (٨ / ٢٥٩).

(٣) يراجع : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي (١/ ٣٠٩).

(٢) آفات وأزمات: مع هذه النعمة العظيمة والآلاء الجسيمة صحةٌ في الأبدان وقوة في البنيان، فلقد كذبوا وكفروا بآيات الله، وسلكوا طريق التجبُّر، فأساءوا استغلال قوتهم، واستكبروا، مع ما كانوا عليه من جحود وكفران وتمرُّد وعصيانٍ ، قال تعالى ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ ﴾ القمر: ١٨ ،

وقوله: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ هود: ٥٩، وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ فصلت: ١٥.

(٣) أفول الحضارة ودمارُها: حلَّ بهم الدمار والخراب، فأهلكهم الله بريح عاتية، هدَّمت بنيانهم واقتلعتهم من بيوتهم، وجعلتهم كجذوع النخل المنقعرة الخاوية قال الله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ القمر: ١٨ – ٢٠ . فانظر كيف كان عاقبة تكذيبهم وجحودهم؛ حيث أرسل الله تعالى عليهم ريحا عاتية باردة في يوم عصيبٍ رهيبٍ في يوم نحس مستمر عليهم، انتقلوا فيه من عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة فهو نحس متواصل، فكانت الريح تنزع الناس مع تشبثهم ولجوئهم لديارهم الحصينة فتقذف بهم رأسا على عقب، قال مجاهد: يُلْقَى الرَّجلُ على رأسِهِ، فتفتت رأسه وعنقه وما يلي ذلك من بدنه.

وقيل: كانوا يصطفون آخذي بعضهم بأيدي بعض، ويدخلون في الشعاب، ويحفرون الحفر فيندسون فيها، فتنزعهم وتدق رقابهم [1]، والأعجاز: الأصول بلا فروع قد انقلعت من مغارسها . وقيل: كانت الريح تقطع رؤوسَهم، فتبقى

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٨ / ١٧٩

أجساداً بلا رؤوس، تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيّبَه عن الأبصار، ثم تنكّسَه على أمِّ رأسه، فيسقط على الأرض جثةً بلا رأسٍ، فأشبهت أعجاز النخل التي انقلعت من مغارسها. (١)

ثانياً: ثمود :

(١)المظاهر الحضارية: : قامت حضارة ثمود في شمال الجزيرة العربية، حيث مكَّن الله لهم في الأرض وهيأ لهم سبل العيش، فكانوا ينحتون البيوت الفارهة في الجبال، ويبنون القصور في السهول والوديان من الأحجار التي يقدُّونها من الجبال، قال تعالى ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ هود: ٦١ ذكَّرهم بنعم الله عليهم إذ خلقهم من أديم الأرض، فأنبتهم منها كما ينبت الزرع وينمو ويترعرع ويزهر ويثمر، وهيَّأ لهم سبل العيش عليها وسخَّر لهم ما يحتاجون إليه في عمارتها من المنافع، ومكّنهم في الأرض ينحتون جبالها، ويستغلون سهولها، ويزرعون وديانها، وينعمون بخيراتها، ويستخرجون كنوزها، يبنون ويعمرون، ويغرسون ويحصدون . قال تعالى ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ الأعراف: ٧٤

وقال تعالى ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ الشعراء: ١٤٦ – ١٤٩، أتطمعون أن تقرُّوا على ما أنتم عليه من معصيةٍ، وتنعمون بالأمن والرفاهية وليونة العيش ! ومعنى فارهين منعَّمين مترفين، وقيل أقوياء ناشطين حاذقين معتدِّين بأنفسكم،

(١) يراجع: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧ / ٤٧٩

وقرئ فرهين : قيل بمعنى أشرين [١] أو مبالغة في الفراهة.

وهذه مظاهر متكررة ومشتركة في المجتمعات والحضارات عندما تتكدس لديهم الأموال والثروات فيفنونها في السفه بإقامة التماثيل والصور والنُّصب طلباً للخلود، وفي الحقيقة هذه عوامل دمار وخراب لملكهم، وتعجيل بكيانهم. [٢]

فنهاهم عن انهماكهم في نحت الحجارة من الجبال بمهارة وبراعة، لكي يبنوا بها بيوتا وقصورا بقصد الأشر والبطر، لا يقصد الإصلاح والشكر لله – فمحل النهى إنما هو قصد الأشر والبطر في البناء وفي النحت. [٣]

ومن الفوائد البديعة مقارنة أبي حيان بين حضارتي عاد وثمود يقول رحمه الله : " وظاهر هذه الآيات أن الغالب على قوم هود : اللذات الخيالية من طلب الاستعلاء والبقاء والتفرُّد والتجبُّر، وعلى قوم صالح : اللذات الحسِّية من المأكول والمشروب والمساكن الطيبة الحصينة . [٤] وقال تعالى ﴿ **وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ۝٩** ﴾ الفجر: ٩ شقوا الصخور ونحتوها وبنوا منها البيوت والمدائن، بِوَادِ الْقُرَى فِيما يعرف بِمَدَائِنِ صَالِحٍ، وبُيُوتُهُمْ مَوْجُودَةٌ إلى الْآنَ .

(٢) الآفات: في مقابل هذه الحضارة المزدهرة والرفاهية والتنعُّم الذي تقلبت فيه ثمود إلا أن حضارتهم كانت مهددةً بآفات كثيرة، منها ما كانوا عليه من إفساد، وكراهية للنصيحة، وتكذيب وإعراض وشك وارتياب في دعوة نبي الله صالح عليه السلام قال تعالى ﴿ **فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝٧٤** ﴾ الأعراف: ٧٤

---

(١) (فرهين) بغير ألف قراءة ابن كثير ، ونافع وأبي عمرو ، وقرأ عاصم وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي «فارهين» بألف.ينظر السبعة لابن مجاهد : ٤٧٢ ، والتبصرة لمكي : ٢٧٨ ، والتيسير للداني : ١٦٦.معاني القرآن للفراء : ٢/ ٢٨٢ ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : ٢/ ٨٨.

(٢) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، محمد هيشور ٢٥٤.

(٣)التفسير الوسيط للقرآن الكريم – (١٠ / ٢٧٠) .

(٤) البحر المحيط (٧ / ٣٤) .

(٣) السقوط الحضاري : لما تمادوا في الضلال وعتوا وتمرَّدوا وعقروا الناقة حق عليهم العذاب وحل بهم العقاب وأصابهم الدمار والخراب، فكانوا عبرةً لكلِّ معتبر قال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ٦٨ ﴾ : فلما انقضت المهلة نجى الله عز وجل بلطفه ورحمته نبيَّه صالحاً ومن آمن به من خزي هذا اليوم العصيب، وأخذت الصيحةُ المدوّيةُ الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرَهم بكفرهم وتمرُّدهم فأصبحوا في ديارهم راكعين على رُكبهم، قد خارت قواهم وانهدَّ بنيانهم وتمرَّغت أنوفُهم وخضعت رقابهم ، كأن لم يقيموا فيها بنعمة وعافية، بل صاروا أثراً بعد عين، وطمست معالم تلك المدائن التي كانت عامرة، ومحيت رسومها وعفت مرابعها، فلم يبق منها إلا الأطلال الموحشة والديار المقفرة ، عبرة ناطقة، ومدائن خربة، تحكي جبروتَهم وتروي قصةَ كفرهم وأشرهم.

وكما يصور لنا القرآن الكريم مشاهد مصارع الكافرين، ودمارهم، فإن من تقديم الوعيد وإبداء النذر، وإقامة الحجج، وإبراز المواعظ يرينا الله تعالى بين الفينة والفينة صورا من هلاك شعوب، فنرى الزلازل المدمرة، والبراكين الفائرة، والأعاصير العاتية، رغم ذلك قلما نجد من يعتبر ويرجع إلى ربه، بل يتعامل الناس مع هذه الكوارث تعاملاً ماديًّا بحتاً، فيشغلهم قوة الإعصار، وقياس الزلزال، وكيفية الوقاية منه ببناء البيوت المقاومة لها، وتمر المحنة تلو المحنة دون أن يعتبروا، ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ ﴾ الرعد:٣١

كما يشير القرآن إلى بقايا تلك الحضارات البائدة وأطلالها البالية وما في النظر إليها من عظة واعتبار، ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ٣٨ ﴾ العنكبوت: ٣٨

الخاتمة

وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

١. عُني من كتب عن الحضارة بالتعليل، تعليل قيام الحضارات وسقوطها، وهيمنت النظرة المادية المجردة على سائر التعليلات، وقلل الكثير من شأن القدر.

٢. بين القرآن الكريم بياناً وافياً الأسس المتينة لبناء الحضارة الإنسانية الرائدة، وما من قيمة من القيم الإنسانية الرفيعة إلا وتحدث القرآن عنها ورغب فيها ومثل لها.

٣. الدين هو الجذوة التي توقد شعلة الحضارة، فلا تقوم الحضارات إلا على دين يحرسها ويحميها وينفخ في روحها.

٤. الحضارة القرآنية حضارة زاخرة بنَّاءة معطاءة.

٥. للقرآن الكريم منهج بنَّاء رشيد في نقد الحضارات والاعتبار من أحوال الغابرين.

٦. ما من عامل من عوامل سقوط الحضارات إلا وحذَّر القرآن منه وربطه بسوء العاقبة.

٧. في القرآن الكريم صور ومشاهد للحضارات الرائدة والبائدة ولا يكتفي القرآن بالعرض والتصوير، بل يشتمل على التحليل والنقد والاستنباط والاعتبار.

٨. تصف لنا آيات القرآن طريق الانحدار وسبيل الهلاك الذي سلكه الخاسرون، كما يصف لنا مصارعهم، ونهايتهم الأليمة، وأن ليس البقاء

للأقوى، ولو كان لخلّد قوم عاد، وثمود، ولكنهم هلكوا في أوج قوتهم، وعنفوان تسلطهم.

٩. النظرةُ الجامعةُ لآياتِ القرآنِ تفتح الأبواب للإجابة عن كثير من التساؤلات وتصحيح كثير من المفاهيم، كما تبرز الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم.

١٠. وإني لأوصي في الختام بعمل رسالة علمية حول الإعجاز التاريخي للقصص القرآني، وكذلك حول السنن الإلهية وبناء الحضارات، ومنهج القرآن في تحليل الحضارات.

المصادر والمراجع

١. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي محمد الأمين بن محمد المختار ت ١٣٩٣هـ- دار الفكر بيروت .

٢. أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (عبد الله بن عمر ت ٦٨٥هـ) ط دار الفكر – بيروت .

١. التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ت ١٣٩٣هـ . ط : الدار التونسية للنشر ١٤٠٤ هـ

٢. تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير. دار الرشيد للكتاب والقرآن الكريم الجزائر.

٣. التفسير الحديث، محمد عزة دروزة ط دار إحياء الكتب العربية – القاهرة الطبعة: ١٣٨٣ هـ .

٤. تفسير القرآن الحكيم المشتهر باسم تفسير المنار للسيد محمد شيد رضا (ت : ١٣٥٤هـ) ط : الهيئة المصرية

٥. تفسير القرآن العظيم للإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ت ٧٧٤ هـ ط مؤسسة قرطبة .

٦. التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ط دار الفكر العربي بالقاهرة .

٧. التفسير الكبير للرازي عبد الله محمد فخر الدين الرازي خطيب الري (ت ٦٠٦هـ)ط دار إحياء التراث بيروت – ١٤٢٠ هـ

٨. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ت ١٣٧٦ هـ ط مؤسسة الرسالة ..

٩. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٧ م

١٠. سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، محمد هيشور . المعهد العالمي للفكر الإسلامي 1996

١١. السّنن النّفسيّة لتطور الأمم، غوستاف لوبون نقله إلى العربية : عادل زعيتر ط دار المعارف ١٩٥٧

١٢. صحيح مسلم بشرح النووي دار إحياء الكتب العربية ت محمد فؤاد عبد الباقي.

١٣. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير محمد بن على الشوكاني ت ١٢٥٥ هـ ط١ البابي ١٣٥٠

١٤. قيم حضاريّة د توفيق السبع ط دار المنار القاهرة ١٩٨٤ م .

١٥. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لمحمود بن عمر الزمخشري ت ٥٢٨ هـ دار الفكر.

١٦. لسان العرب لجمال الدين محمد بن مكرم بن على بن أحمد بن أبى القاسم بن منظور ٧١١ هـ ط دار المعارف بدون .

١٧. مباحث في التفسير الموضوعي تأليف الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم . دار القلم دمشق.

١٨. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية : أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي ط : دار الكتب العلمية – لبنان – ١٤١٣هـ . ١٩٩٣م ط١ تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد

١٩. مسند الإمام أحمد بن حنبل ط المكتب الإسلامي بدون تاريخ، و ط مؤسسة الرسالة بيروت .

٢٠. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للعلامة أحمد بن محمد بن على المقري الفيومي ت ٧٧٠ هـ ط المكتبة العصرية.

٢١. معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي أبو محمد الحسين بن مسعود بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى : ٥١٠هـ) دار إحياء التراث العربي –بيروت ط : ١، ١٤٢٠ هـ

٢٢. المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية القاهرة .

٢٣. معركة الحضارة قسطنطين زريق ط دار العلم للملايين.

٢٤. مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل ط.دار القلم .دمشق

٢٥. مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: ت 811 هـ .مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت.

٢٦. النشر في القراءات العشر، لشمس الدين ابن الجزري، محمد بن محمد ت : ٨٣٣ هـ) المطبعة التجارية الكبرى .